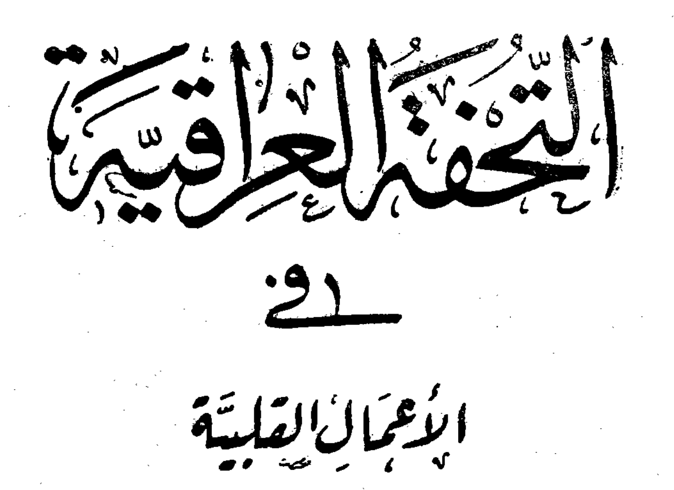


تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١ ــ ٧٢٨)

المكتبة السلفية

٢١ شارع الفتح بالروضة تليفون ٨٤٠٣٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

أما بعد فهذه كلمات مختصرة فى أعمال القلوب ، التى تسمى المقامات والأحوال . وهى من أصول الإيمان وقواعد الدين ، مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك . اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان ، واستكتبها وكل منا عجلان ، فأقول :

هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين فى الأصل باتفاق أئمة الدين . والناس فى هذا على ثلاث درجات ، كما هم فى أعمال الأبدان على ثلاث درجات : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات . فالظالم لنفسه العاصى بترك مأمور وفعل محظور . والمقتصد المؤدى الواجبات والتارك المحرمات . والسابق بالخيرات المتقرب بما يقدر عليه من واجب ومسنون ، والتارك للمحرم والمكروه وإن كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب تمحى عنه بتوبة ، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، إما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفرة ، وإما بغير ذلك . وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم فى كتابه (٦٢ يونس) : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون وخاص وهم السابقون ، وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين . وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم القسمين فى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شىء أنا فاعل ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته

ولابد له منه . وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان ففيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه ، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره . فالشخص الواحد قد تجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب ، والسيئات المقتضية للعقاب ، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب ، وهذا قول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون : إنه لا يخلد فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وأما القائلون بالتخليد كالخوارج أو المعتزلة القائلين أنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة ، وأنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره فى أهل الكبائر ، لا قبل دخول النار ولا بعدها ، فعندهم لا يجتمع فى الشخص الواحد ثواب وعقاب وحسنات وسيئات ، بل من أثيب لا يعاقب ومن عوقب لم يثب . ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة كثير ليس هذا هو موضعه ، قد بسطناه فى موضعه . وينبنى على هذا أمور كثيرة ، ولهذا من كان معه إيمان حقيقى فلابد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه وإن كان له ذنوب ، كما رواه البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أن رجلا كان يسمى حماراً ، وكان يضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يشرب الخمر ويجلده النبى صلى الله عليه وسلم . فأتى به مرة فقال رجل : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تلعنه . فإنه يحب الله ورسوله ، فهذا بين أن المذنب بالشراب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله ، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان ، كما أن العابد الزاهد قد يكون — لما فى قلبه من بدعة ونفاق — مسخوطاً عند الله ورسوله من ذلك الوجه ، كما استفاض فى الصحاح وغيرها من حديث على بن أبى طالب وأبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الخوارج فقال « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » . وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيهم فى الحديث الصحيح « تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين » ولهذا قال أئمة المسلمين كسفيان الثورى : إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها . ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها أن المبتدع الذى يتخذ ديناً لم يشرعه الله ورسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب

ما دام يراه حسناً ، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه ، أو أنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله ، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب ، ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق ، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال ، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه : فمن عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم كما قال تعالى (١٧ محمد) : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ وقال (٦٦ النساء) : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ وقال تعالى (٢٨ الحديد) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ وقال تعالى (٢٥٧ البقرة) : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وقال تعالى (١٥ المائدة) : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ الآية . وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة . وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذى يعلمه تبعاً لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى (٥ الصف) : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ الآية ، وقال تعالى (١٠ البقرة) : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ ، وقال تعالى (١٠٩ الأنعام) : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ الآية ، وهذا استفهام نفى وإنكار ، أى وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وإنا ﴿ نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ على قراءة من قرأ إنها بالكسر تكون جزماً بأنها ﴿ إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها . وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الصدق أصل يستلزم البر ، وأن الكذب يستلزم الفجور . وقد قال تعالى (١٣ الانفطار) :

﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾ ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ويتعب قلبه أمره بالصدق ، ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون : قل لمن لا يصدق لا يتبعني . ويقولون : الصدق سيف الله في الأرض ، ما وضع على شيء إلا قطعه . ويقول يوسف بن أسباط وغيره : ما صدق الله عبد إلا صنع له . وأمثال هذا كثير . والصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام ، فإن المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق ، فالفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق ، كما في قوله (١٤ الحجرات) : ﴿ قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا — إلى قوله — إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ ، وقال تعالى (٨ الحشر) : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ﴾ فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم به ، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم ، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين ، كما قال تعالى (٨١ آل عمران) : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ الآية . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه . وقال تعالى (٢٥ الحديد) : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز ﴾ ، فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان ، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط ، وليعلم الله من ينصره ورسله ، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدى وسيف ينصر ، وكفى بربك هادياً ونصيراً . والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر ، حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى (أول الزمر) : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ وقال تعالى (أول هود) : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ وقال (٦ النمل) : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ . والحديد أنزل من الجبال التي يخلق فيها . وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله (١٧٧ البقرة) : ﴿ ليس البر أن تولوا

وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين — إلى قوله — أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ .
وأما المنافقون فوصفهم بالكذب فى آيات متعددة كقوله (١٠ البقرة) : ﴿ فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ وقوله (أول المنافقون) : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقال (٧٧ التوبة) : ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون ﴾ ونحو ذلك من القرآن كثير .
ومما ينبغى أن يعرف أن (الصدق والتصديق) يكون فى الأقوال والأعمال ، كقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، فهو مدرك ذلك لا محالة : فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذنان تزنيان وزناهما السمع ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والقلب يتمنى ويشتهى ، والفرج يصدق ذلك ويكذبه » ويقال : حملوا على العدو حملة صادقة إذا كان إرادتهم القتال ثابتة صادقة ، ويقال : فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك . ولهذا يراد بالصادق الصادق فى إرادته وقصده وطلبه ، وهو الصادق فى عمله ويريدون الصادق فى خبره وكلامه . والمنافق ضد المؤمن الصادق ، وهو الذى يكون كاذباً فى خبره أو كاذباً فى عمله . كالمرائى فى عمله . قال الله تعالى (١٤٣ النساء) : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ﴾ الآيتين .
وأما (الإخلاص) فهو حقيقة الإسلام ، إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى (٢٩ الزمر) : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان ﴾ ؟ الآية . فمن لم يستسلم له فقد استكبر ، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك ، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام ، والإسلام ضد الشرك والكبر . وذلك فى القرآن كثير ، ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وهى متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، وهو الإسلام العام الذى لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً سواه ، كما قال تعالى (٨٥ آل عمران) : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ وقال (١٨ آل عمران) : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وهذا الذى ذكرنا مما يبين

ن أصل الدين فى الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال ، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده « الإسلام علانية ، والإيمان فى القلب » ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، وهى القلب » وعن أبى هريرة قال « القلب ملك والأعضاء جنوده . فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث خبثت جنوده » .

فصل

وهذه الأعمال الباطنة — كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك — كلها مأمور بها فى حق الخاصة والعامة ، لا يكون تركها محموداً فى حال واحد وإن ارتقى مقامه . وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله ، بل قد نهى عنه فى مواضع وإن تعلق أمر الدين به كقوله تعالى (١٣٩ آل عمران) : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقوله (١٢٧ النحل) : ﴿ ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ﴾ وقوله (٤٠ التوبة) : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ وقوله (٦٥ يونس) : ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ وقوله (٢٣ الحديد) : ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ وأمثال ذلك كثيرة . وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة ولا فائدة فيه ، ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به . نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب ، ولكن يؤاخذ على هذا ويرحم — وأشار بيده إلى لسانه » وقال « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب » ومنه قوله تعالى (٨٤ يوسف) : ﴿ فتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ . وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه ويكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين على مصيبة فى دينه وعلى مصائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب على ما فى قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة

منهى عنها ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن ، وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به كان مذموماً عليه من تلك الجهة ، وإن كان محموداً من جهة أخرى . وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض ، وهى حسنة محبوبة فى حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ومن قال إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها ، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط ، وإنما يخرج عنها كافر ومنافق .

وقد تكلم بعضهم بكلام بيّنا غلطه فيه وأنه تقصير فى تحقيق هذه المقامات من مدة ، وليس هذا موضعه ، ولكن هذه المقامات ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، فللخاصة خاصها والعامة عامها . مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : إن التوكل مناضلة عن النفس فى طلب القوت ، والخاص لا يناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطالب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروغه منها فلا يطلب شيئاً . فيقال : أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل فى مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله فى صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته ، وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا يناجى ربه فى كل صلاة بقوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ كما فى قوله (١٢٣ هود) ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ وقوله (٨٨ هود و ١٠ الشورى) : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ فهو قد جمع بين العبادة والتوكل فى عدة مواضع ، لأن هذين يجمعان الدين كله ، ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة فى القرآن ، وجمع علم القرآن فى المفصل ، وجمع علم المفصل فى فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب فى قوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، وهاتان الكلمتان الجامعتان اللتان للرب والعبد كما فى الحديث الصحيح الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله سبحانه : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، نصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، يقول الله : حمدنى عبدى . يقول العبد : الرحمن الرحيم ، يقول الله : أثنى علىّ عبدى . يقول العبد مالك يوم الدين ، يقول الله : مجدنى عبدى . يقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله : فهذه الآية بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل . يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، يقول الله : فهؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل »

فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له نصف الدعاء والطلب ، وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد ، فإياك نعبد للرب وإياك نستعين للعبد . وفى الصحيحين عن معاذ رضى الله عنه قال «كنت رديفاً للنبى صلى الله عليه وسلم على حمار فقال : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به » والعبادة هى الغاية التى خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى (٥٦ الذاريات) : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وهى اسم يجمع كمال الذل ونهايته وكمال الحب لله ونهايته ، فالحب الخلى عن ذل والذل الخلى عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله ، وهى وإن كانت منفعتها للعبد والله غنى عنها فهى له من جهة محبته لها ورضاه بها ، ولهذا كان الله أشد فرحاً بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه فى أرض دوية مهلكة إذا نام آيساً منها ثم استيقظ فوجدها ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته . وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها فى غير هذا الموضع. والتوكل والاستعانة للعبد لأنه هو الوسيلة والطريق الذى ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة كالدعاء والمسألة . وقد روى الطبرانى فى كتاب الدعاء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله : يا ابن آدم إنما هى أربع واحدة لى ، وواحدة لك وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى . فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، وأما التى هى لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلىّ الإجابة ، وأما التى بينك وبين خلقى فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك » . وكون هذا لله وهذا للعبد هو اعتبار تعلق المحبة والرضاء ابتداء ، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائماً له ، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة فى رضاه ، وحبه الوسيلة تبعاً لذلك ، وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه . وعلى هذا فالذى ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط ، بل التوكل فى الأمور الدينية أعظم . وأيضاً التوكل فى الأمور الدينية التى لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها ، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه ، والزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التى لا يستعان بها على طاعة الله ، كما أن الورع المشروع هو ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة وهو ترك المحرمات

والشبهات التى لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها كالواجبات ، فأما ما ينفع فى الدار الآخرة بنفسه أو على ما ينفع فى الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فى قوله تعالى (٨٧ المائدة) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن واجب أو بفعل محرم كان عاصياً ، وإلا كان منقوصاً عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين . وأيضاً فالتوكل هو محبوب لله مرضى مأمور به دائماً ، وما كان محبوباً لله مرضياً مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين . فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم المتوكل لا يطلب حظوظه .

وأما قولهم الأمور قد فرغ منها ، فهذا نظير ما قاله بعضهم فى الدعاء أنه لا حاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه ، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع . وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلا ، وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة ، وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض . وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضاً . وكذلك قول من قال : الدعاء إنما هو عبادة محضة . فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد ، وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد ، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التى جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم ، ولهذا كان طور قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية ، وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذا مرات ، فأجاب عنه ، كما أخرجاه فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قالوا : ففيم العمل ؟ قال : كل ميسر لما خلق له » وفى الصحيحين عن على بن أبى طالب قال « كنا فى جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس ومعه مخصرة ، فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ، ثم رفع رأسه وقال : ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة ، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة . قال فقال رجل من القوم : يا نبى الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة . قال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له : أما أهل السعادة فييسرون للسعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة . ثم قال نبى الله صلى الله عليه وسلم (٥ الليل) : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى

فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ أخرجه الجماعة فى الصحاح والسنن والمسانيد . وروى الترمذى « أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل فقيل : يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها ، وتقى نتقيها ، أترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : هى من قدر الله » ، وقد جاء هذا المعنى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث . فبين صلى الله عليه وسلم أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقى لا ينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة وشقاوة هذا بالأعمال السيئة ، فإنه سبحانه يعلم الأمور على ما هى عليه ، وكذلك يكتبها ، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة ، والشقى يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيداً ييسر للأعمال الصالحة ، والشقى يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان للأعمال السيئة التى تقتضى الشقاوة ، كلاهما ميسر لما خلق له ، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى (١١٨ هود) : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ﴾ .

وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية وأمره بموجباتها فذلك مذكور فى قوله (٥٦ الذاريات) : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ والله سبحانه قد بين فى كتابه فى كل واحدة من الكلمات والأمر والإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضاء والتحريم ونحو ذلك مما هو دينى موافقته لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعى ، وما هو كونى موافقته لمشيئته الكونية . مثال ذلك أنه قال فى الأمر الدينى (٩٠ النحل) : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ وقال تعالى (٥٨ النساء) : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ ونحو ذلك . وقال فى الكونى (٨٢ يس) : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وكذلك قوله (١٦ الإسراء) : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ﴾ على أحد الأقوال فى هذه الآية . وقال فى الإرادة الدينية (١٨٥ البقرة) : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، (٢٦ النساء) : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ ، (٦ المائدة) : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ﴾ . وقال فى الإرادات الكونية (٢٥٣ البقرة) : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ وقال (١٢٥ الأنعام) : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴾ ، وقال نوح عليه السلام (٣٤ هود) : ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن

أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ ، وقال (٨٢ يس) : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ، وقال فى الإذن الدينى (٥ الحشر) : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ ، وقال فى الكونى (١٠٢ البقرة) : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، وقال فى القضاء الدينى (٢٣ الإسراء) : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ أى أمر ، وقال فى الكونى (١٢ فصلت) : ﴿ فقضاهن سبع سماوات فى يومين ﴾ ، وقال فى الحكم الدينى (أول المائدة) : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، إن الله يحكم ما يريد ﴾ وقال (١٠ الممتحنة) : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، وقال فى الكونى (٨٠ يوسف) عن ابن يعقوب : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين ﴾ ، وقال (١١٢ الأنبياء) : ﴿ قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ ، وقال فى التحريم الدينى (٣ المائدة) : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ، (٢٣ النساء) : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ﴾ الآية ، وقال فى التحريم الكونى (٢٦ المائدة) : ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾ . وقال فى الكلمات الدينية (١٢٤ البقرة) : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ ، وقال فى الكونية (١٣٧ الأعراف) : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم المستفيض عنه من وجوه فى الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » . ومن المعلوم أن هذا هو الكونى الذى لا يخرج منه شىء عن مشيئته وتكوينه ، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الكفار بمعصيته .

والمقصود هنا أنه صلى الله عليه وسلم بين أن العواقب التى خلق لها الناس سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها إلى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات كذلك ، فهو سبحانه خلق الولد وسائر الحيوان فى الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح واجتماع الماءين فى الرحم ، فلو قال الإنسان : أنا أتوكل ولا أطأ زوجتى ، فإن كان قد قضى لى بولد وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء ، كان أحمق ، بخلاف ما إذا وطئ وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، إذ قد يخرج بغير اختياره ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى قال « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المصطلق ، فأصبنا سرايا من العرب ، فاشتهينا النساء ، واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل ، فسألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال : ما عليكم ألا تفعلوا ، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة » وفى صحيح مسلم عن جابر « إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى جارية هى خادمتنا وسانيتنا فى النخل ، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ، فقال : أعزل عنها إن شئت ، فإنه سيأتيها ما قدر لها » وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام ، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة . وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع فى كثير من (١) ، وكثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ويجرى مع الحقيقة القدرية ، ويحسب أن قول القائل : ينبغى للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدى الناس يتضمن ترك العمل بالأمر والنهى حتى يترك ما أمر به ويفعل ما نهى عنه ، وحتى يضعف عنده النور والفرقان والذى يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه وأرضاه وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه ، فيسوى بين ما فرق الله بينه ، قال تعالى (٢١ الجاثية) : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾ وقال تعالى (٣٥ القلم) : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ؟ وقال تعالى (٢٨ ص) : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ؟ وقال تعالى (٩ الزمر) : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ؟ وقال تعالى (١٩ فاطر) : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ وأمثال ذلك ، حتى يفضى الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوى الإلهى الفرقانى الشرعى الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وبين ما يكون فى الوجوه من الأحوال التى تجرى على أيدى الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة الجمع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة وأنه داخل فى ملكه ، ولا يشهدون وجه الفرق الذى فرق الله به بين أوليائه وأعدائه والأبرار والفجار والمؤمنين والكافرين وأهل الطاعة الذين أطاعوا أمره الدينى وأهل المعصية الذين عصوا هذا الأمر ،

(١) كذا النسخة .

ويشهدون فى ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ ، أو ببعض غلطات بعضهم . وهذا أصل عظيم من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل إرادة الذين يريدون وجهه ، فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله ، حتى يصيروا معاونين على البغى والعدوان للمسلطين فى الأرض من أهل الظلم والعلو ، الذين يتوجهون بقلوبهم فى معاونة من يهوونه من أهل العلو فى الأرض والفساد ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها فى ذلك من أولياء الله ، فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان ، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً ، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تارة ومكروهاً لله أخرى ، وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل بغيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك ، ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكونى ، ويعلون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف لهم أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولا يعلمون أنه فى الحقيقة إهانة ، وأن الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه ، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم (٦٢ يونس) : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين ، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً . وأما ما يبتلى الله به عبده من الشر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه ، بل قد يسعد بها أقوام إذا أطاعوه فى ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه فى ذلك . قال الله تعالى (١٥ الفجر) : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا ﴾

ولهذا كان الناس فى هذه الأمور على ثلاثة أقسام : قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها فى الطاعة . وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها فى معصية الله كبلعام وغيره . وقوم تكون فى حقهم بمنزلة المباحات . والقسم الأول هم المؤمنون حقاً المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذى إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله .

ولكثرة الغلط فى هذا الأصل نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسترسال

مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذى ينفع العبد ، فروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » وفى سنن أبى داود « أن رجلين اختصما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما ، فقال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل » فأمر النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقوله (١٢٣ هود) : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته ، إذ النافع له هو طاعة الله ، ولا شيء أنفع له من ذلك ، وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح ، قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لسعد « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة تضعها فى فى امرأتك » فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يلوم على العجز الذى هو ضد الكيس ، وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فإن ذلك ينافى القدرة المقارنة للفعل ، وإن كان لا ينافى القدرة المقدمة التى هى مناط الأمر والنهى ، فإن الاستطاعة التى توجب الفعل وتكون مقارنة له لا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها فى قوله (٢٠ هود) : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ وقوله (١٠١ الكهف) : ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ وأما الاستطاعة التى يتعلق بها الأمر والنهى فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن ، كما فى قوله (٩٧ آل عمران) : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم لعمر أن « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » .

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه على أربعة أقسام :

قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة ، شاهدين لألوهيته سبحانه الذى أمروا أن يعبدوه ، ولا ينظروا إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة . وهو حال كثير من المتفقهة المتعبده ، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان ، والاستعانة بالله والتوكل عليه واللجاء إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر عليه الأمور ، ولهذا قال بعض

السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله . وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفته فى التوراة : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ويغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح بك أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا : لا إله إلا الله ». ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم : لا حول ولا قوة إلا بالله . وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنها كنز من كنوز الجنة » قال تعالى (٣ الطلاق) : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال تعالى (١٧٣ آل عمران) : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل — إلى قوله — فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وفى صحيح البخارى عن ابن عباس فى قوله ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ : قالها إبراهيم الخليل حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم .

وقسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ، ويستعينون بها على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ، ورضاه وغضبه ومحبته . وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة . ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ، لا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه . وكثيراً ما يغلطون فيظنون أن معصيته هى مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهى ، ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون أن هذه الحقيقة الأمرية الدينية هى التى تحوى مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطناً . وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم ، وقد يعودون إلى نوع من المعاصى والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين ، فهم يقعون فى بعض ما وقع المشركون فيه تارة من بدعة يظنونها شرعة ، وتارة فى الاحتجاج بالقدر على الأمر ، والله تعالى لما ذكر ما ذم به المشركين فى سورة الأنعام ذكر ما ابتدعوه فى الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى (٢٨ الأعراف) : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ وقد ذمهم على أن حرموا مالم يحرمه الله وأن شرعوا مالم يشرعه الله ، وذكر احتجاجهم بالقدر قوله (١٤٨ الأنعام) : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ﴾ ونظيرها فى النحل ويس والزخرف ، وهؤلاء يكون فيهم شبهة فى هذا وهذا .

وأما القسم الثالث — وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به — فهؤلاء شر الأقسام .

والقسم الرابع هو القسم المحمود ، وهو حال الذين حققوا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، وقوله (١٢٣ هود) : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذى لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذى ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع وأنه (٢ فاطر) : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ ، (١٠٧ يونس) : ﴿ وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ ، (٣٨ الزمر) : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ ؟ ولهذا قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع . فقد بين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً وإن كان من أعيان المشايخ كصاحب « علل المقامات » ، وهو من أجل المشايخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب « محاسن المجالس » وأظهر ضعف حجته ، فمن قال ذلك (قال) : إن المطلوب به حظ العامة فقط ، وظنه أنه لا فائدة له فى تحصيل المقصود ، وهذه حال من جعل الدعاء كذلك ، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عما يجب عليه من الأسباب التى هى عبادة الله وطاعة مأمور بها ، فإن غلط هذا من ترك الأسباب المأمور بها التى هى داخلة فى قوله (١٢٣ هود) : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، كغلط الأول فى ترك التوكل المأمور به الذى هو داخل فى قوله ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ . لكن يقال : من كان توكله على الله ودعاؤه له هو فى حصول مباحات فهو من العامة ، وإن كان فى حصول مستحبات وواجبات ، فهو من الخاصة كما أن من دعاه وتوكل عليه فى حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان ، فكيف يكون هذا المقام للخاصة ؟ قال الله تعالى (٨٤ يونس) : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ وقال تعالى (١٦٠ آل عمران) : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ ؟ وقال (١٢ إبراهيم) : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ، وقال تعالى

(٣٨ الزمر) : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره — إلى قوله — قل حسبي الله ، عليه يتوكل المتوكلون ﴾ وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبي الله) فى جلب المنفعة تارة وفى دفع المضرة أخرى ، فالأولى قوله (٥٩ التوبة) : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ الآية ، والثانية قوله (١٧٣ آل عمران) : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وفى قوله (٦٢ الأنفال) : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ وقوله (٥٩ التوبة) : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ الآية يتضمن الأمر بالرضا والتوكل ، والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه والرضاء بعد وقوعه ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى الصلاة « اللهم بعلمك الغيب ، وبقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع . اللهم إنى أسألك الرضاء بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » رواه أحمد والنسائى من حديث عمار بن ياسر . وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة للرضا ، ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء ، فإذا وقع انفسحت عزائمهم ، كما يقع نحو ذلك فى الصبر وغيره ، كما قال تعالى (١٤٣ آل عمران) : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ وقال تعالى (٣ الصف) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ نزلت هذه الآية لما قالوا : لو علمنا أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه ، فأنزل الله آية الجهاد فكرهه من كرهه ، ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، أو يطلب ولاية ، أو يقدم على بلد فيه طاعون ، كما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال « إنه لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » ، وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة

« لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » ، وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال فى الطاعون « إذا سمعتم به بأرض . فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » ، وثبت فى الصحيحين أنه قال « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية . ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وأمثال ذلك مما يقتضى أن الإنسان لا ينبغى له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء فيبخل بالوفاء ، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهوداً على أمور ، وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود .

وينبغى أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت ولا يكل حتى يكون من الرجال الموفين القائمين بالواجبات . ولابد فى جميع ذلك من « الصبر » . ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات . ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن أن يخرج ، والصبر عن اتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه . وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى أكثر من تسعين موضعاً ، وقرنه بالصلاة فى قوله (٤٥ البقرة) : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ ، (١٥٣ البقرة) : ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ ، وقوله (١١٥ هود) : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل – إلى قوله – واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ، (١٣٠ طه) : ﴿ فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ ، (٥٥ غافر) : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ﴾ الآية . وجعل الإمامة فى الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله (٢٤ السجدة) : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ فإن الدين كله علم بالحق وعمل به ، فالعمل به لابد فيه من الصبر ، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر ، كما قال معاذ بن جبل : عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة ، ومعرفته خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، ومذاكرته تسبيح . به يعرف الله ويعبد ، به يمجد ويوحد ، يرفع الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم . فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولابد فى الجهاد من الصبر ، ولهذا قال تعالى ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ وقال تعالى (٤٥ ص) : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾ فالعلم النافع هو أصل الهدى ، والعمل بالحق هو

الرشاد . وضد الأول هو الضلال ، وضد الثانى هو الغى ، والضلال العمل بغير علم ، والغى إتباع الهوى . قال تعالى ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ فلا ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر ؛ ولهذا قال على : ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا انقطع الرأس بان الجسد ، ثم رفع صوته فقال : ألا لا إيمان لمن لا صبر له .

وأما « الرضا » فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم فى « الرضاء بالقضاء » هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين . فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين . قال عمر بن عبد العزيز : الرضاء عزيز ، ولكنه معول المؤمن . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عباس « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » . ولهذا لم يجئ فى القرآن إلا مدح الراضين لا إيجاب ذلك ، وهذا فى الرضا فيما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى (١٧٧ البقرة) : ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾ وقال (٢١٤ البقرة) : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ﴾ فالبأساء فى الأموال ، والضراء فى الأبدان ، والزلزال فى القلوب . وأما « الرضا بما أمر الله به » فأصله واجب ، وهو من الإيمان ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً » . وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى . وقال (٦٥ النساء) : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما ﴾ ، وقال تعالى (٥٩ التوبة) ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ﴾ الآية . وقال تعالى (٢٨ محمد) : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ﴾ وقال (٥٤ التوبة) : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ . ومن النوع الأول ما رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سعادة ابن آدم استخارته لله ، ورضاه بما قسم الله له . ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله ، وسخطه بما يقسم الله له » . وأما الرضا بالمنهيات — من الكفر والفسوق والعصيان — فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها إذ هى كما لا تشرع محبتها ، فإن الله سبحانه

لا يرضاها ولا يحبها وإن كان قدرها وقضاها كما قال سبحانه (٢٠٥ البقرة) : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ وقال تعالى (٧ الزمر) : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ بل يسخطه كما قال تعالى (٢٨ محمد) : ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ﴾ . وقالت طائفة : ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً ، وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسباً . وهذا لاينافى الذى قبله ، بل هما يعودان إلى أصل واحد ، وهو سبحانه قدر الأشياء لحكمة ، فهى لاعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية ، وقد تكون فى نفسها مكروهة ومسخوطة ، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان : يحب من أحدهمـا ، ويكره من الآخر ، كما فى الحديث الصحيح « ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولابد له منه » . وأما من قال بالرضا بالقضاء الذى هو وصف الله فعله لا بالمقضى الذى هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام ، فإن الكلام ليس بالرضاء فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله ، وإنما الكلام فى الرضاء بمفعولاته . والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه فى غير هذا الموضع . و « الرضاء » وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد ، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضاء . ولهذا جاء فى الكتاب والسنة حمد الله على كل حال ، وذلك يتضمن بمقضياته . وفى الحديث « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه « كان إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر الذى يسوؤه قال : الحمد لله على كل حال » ، وفى مسند الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته : أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال ؟ فيقولون : حمدك واسترجعك . « فيقول : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد » ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو صاحب لواء الحمد ، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء ، والرضا والحمد على الضراء يوجبه شاهدان : أحدهما علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه ، فإنه أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء ، وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم . والثانى علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه ، كما روى مسلم فى صحيحه وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ،

وليس ذلك إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له » فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له . قال تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ وذكرها فى أربعة مواضع من كتابه (٥ إبراهيم) ، (٣١ لقمان ، ١٩ سبأ ، ٣٣ الشورى) . فأما من لا يصبر على البلاء ، ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له . ولهذا أجبت من أورد على هذا بما يقضى على المؤمن من المعاصى بجوابين : أحدهما أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد كما قوله (٧٩ النساء) : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله — أى من سراء — وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أى من ضراء . وكقوله (١٦٨ الأعراف) : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ أى بالسراء والضراء كما قال (٣٥ الأنبياء) : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ وقال (١٢٠ آل عمران) : ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ يراد بها المسار والمضار ، ويراد بها الطاعات والمعاصى . والجواب الثانى أن هذا فى حق المؤمن الصبار الشكور . والذنوب تنقص الإيمان ، فإذا تاب العبد أحبه الله ، وقد ترتفع درجته بالتوبة . قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة . فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد ابن جبير : إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة . وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها ، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الأعمال بالخواتيم » ، والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبته تندفع عنه بعشرة أسباب : أن يتوب فيتوب الله عليه ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . أو يستغفر فيغفر له . أو يعمل حسنات تمحوها ، فإن الحسنات يذهبن السيئات . أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً . أو يهدون له من ثواب أعمالهم لينفعه الله به . أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . أو يبتليه (الله) فى الدنيا بمصائب تكفر عنه . أو يبتليه فى البرزخ والصعقة فيكفر بها عنه . أو يبتليه فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه . أو يرحمه أرحم الراحمين . فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه ، كما قال تعالى فيما يروى عنه رسوله « يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ، فإن كان المؤمن يعلم أن القضاء خير إذا كان صابراً شكوراً ،

وكان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم له ، كان قد رضي بما هو خير له . وفي الحديث الصحيح عن علي قال « إن الله يقضي بالقضاء فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ، ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء ، وهذا أكمل من الرضا والصبر ، فلهذا ذكر في ذاك الرضا وفي هذا الصبر . ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا ، ولهذا جاء في الحديث « المصاب من حرم الثواب » فالأثر الذي رواه الشافعي في مسنده « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات سمعوا قائلا يقول : يا آل بيت رسول الله ، إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب » . ولهذا لم نؤمر بالحزن المنافي للرضا قط ، مع أنه لا فائدة فيه فقد يكون مضرة ، لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله ، لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ، وذلك لا ينافي الرضا ، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه ، وبهذا تعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال « إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » وأن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت ، وأن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي فضحك وقال : رأيت أن الله قضى ، فأحببت أن أرضى بما قضى الله به حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع . وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله كحال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا أكمل . قال تعالى (١٧ البلد) : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة ﴾ فذكر سبحانه التواصي بالصبر والرحمة .

والناس أربعة أقسام : منهم من يكون فيه صبر بقسوة ، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع ، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع ، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس . وقد فطن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له ، وهذا إنما يتوجه على المأخذ الأول وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه مع قطع العبد النظر عن حظه ، بخلاف المأخذ الثاني وهو الرضا لعلمه بأن المقضي خير له . ثم إن المحبة متعلقة به والرضا متعلق بقضائه لكن قد يقال في تقرير ما قال هذا المصنف ونحوه إن المحبة لله نوعان : محبة له نفسه ، ومحبة لما منهم من الإحسان . وكذلك الحمد له نوعان : حمد له على ما يستحقه بنفسه ، وحمد على إحسانه لعبده . فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة . وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من

حظ المحبة ، ولهذا ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً » . وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » . وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول :

فصل

محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده ، بل هى أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين ، كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين ، فإن كل حركة فى الوجود إنما تصدر عن محبة : إما عن محبة محمودة ، أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا لك فى قاعدة المحبة ، من (القواعد الكبار) . فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة ، وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملا صالحاً ، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله ، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فأنا منه برئ ، وهو كله للذى أشرك » . وثبت فى الصحيح حديث الثلاثة الذين هم « أول من تسعر بهم النار : القارئ المرائى ، والمجاهد المرائى ، والمتصدق المرائى » بل إخلاص الدين لله هو الدين الذى لا يقبل الله سواه ، فهو الذى بعث به الأولين والآخرين من الرسل ، وأنزل به جميع الكتب ، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان ، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية ، وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه ، قال تعالى (أول الزمر ، وأول غافر ، وأول الجاثية ، وأول الأحقاف) : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ ، (أول الزمر) : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾ والسورة كلها عامتها فى هذا المعنى من قوله (١١ الزمر) : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ إلى قوله (١٤ الزمر) : ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له دينى — إلى قوله — أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه

– إلى قوله – قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ الآية ، الى قوله (٤٣ الزمر) : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون . واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون – إلى قوله – قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون – إلى قوله – بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وأبليس أنه قال (٨٢ ص) : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وقال تعالى (٤٢ الحجر) : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ وقال (٩٩ النحل) : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين ، ولهذا قال فى قصة (٢٤ يوسف) : ﴿ وكذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . وأتباع الشيطان هم أصحاب النار كما قال تعالى (٨٥ ص) : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ، وقد قال سبحانه (٤٨ و١١٦ النساء) : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وهذه الآية فى حق من لم يتب ، ولهذا خصص الشرك وقيل ما سواه بالمشيئة ، فإنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ، وما دونه يغفره لمن يشاء ، وأما قوله (٥٣ الزمر) : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ فتلك فى حق التائبين ، ولهذا عمم وأطلق ، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها ، وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى صلى الله عليه وسلم لما أمره أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال (٤ البينة) : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ الآية ، وهذا حقيقة قول « لا إله إلا الله » وبذلك بعث جميع الرسل ، قال الله تعالى (٢٥ الأنبياء) : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال (٤٥ الزخرف) : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ؟ وقال تعالى (٣٦ النحل) : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل ، كما قال نوح عليه السلام (٥٩ الأعراف) : ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ وكذلك

هود (٥٠ هود) وصالح (٦١ هود) ، وشعيب (٨٤ هود) عليهم السلام وغيرهم ، كل يقول ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ لا سيما أفضلا الرسل اللذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمداً عليهما السلام ، فإن هذا الأصل بينه الله بهما ، وأيدهما فيه ، ونشره بهما . فإبراهيم هو الإمام الذى قال الله فيه (١٢٤ البقرة) : ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً ﴾ وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل ، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم ، قال سبحانه (٢٦ الزخرف) : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ فهذه الكلمة هى كلمة الإخلاص لله ، وهى البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذى فطرنا كما قال صاحب يس (٢٢ ياسين) : ﴿ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ ، وقال تعالى فى قصته بعد أن ذكر ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب رباً يعبده من دون الله قال (٧٨ الأنعام) : ﴿ فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين — إلى قوله — ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ وقال إبراهيم الخليل عليه السلام (٧٥ الشعراء) : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وقوله تعالى (٤ الممتحنة) : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ الآية . ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى أقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد ، وقمع به المشركين : من كان مشركاً فى الأصل ومن الذين كفروا من أهل الكتاب ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد وغيره « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد فقال تعالى ﴿ والصافات صفا — إلى قوله — إن إلهكم لواحد ﴾ إلى قوله ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين — إلى قوله — أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ﴾ إلى ما ذكره من قصص الأنبياء فى التوحيد وإخلاص الدين لله ، إلى قوله ﴿ سبحان الله

عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ وقال تعالى (١٤٥ النساء) : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وطسم وحم وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر ، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الإخلاص ﴿ قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ﴾ وهاتان السورتان كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما فى صلاة التطوع كركعتى الطواف وسنة الفجر ، وهما متضمنتان للتوحيد ؛ فأما ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فهى متضمنة للتوحيد العملى الإرادى وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة ، وهو الذى يتكلم به مشايخ التصوف غالباً . وأما سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فتضمنة للتوحيد القولى العملى كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة « أن رجلا كان يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فى صلاته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : سلوه لم يفعل ذلك ؟ فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحبها . فقال : أخبروه أن الله يحبه » ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذى ينفى قول أهل التعطيل وقول أهل التمثيل ما صارت به هى الأصل المعتمد فى مسائل الذات ، كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع ، وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته فى تفسير « الأحد » كما جاء تفسيره عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وما دل على ذلك من الدلائل . لكن المقصود هنا هو التوحيد العملى وهو إخلاص الدين لله ، وإن كان أحد النوعين مرتبطاً بالآخر فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة إلا وفيه نوع من الشرك العملى ، إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه ، أو بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات فى الصفات السلبية التى لاتستلزم مدحاً ولا ثبوت كمال ، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات فى صفات النقص ، وكما يسوون إذ أثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة مساواة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له أنداداً ويشبهون المخلوق برب العالمين . واليهود كثيراً ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التى يجب تنزيهه عنها وهى من صفات خلقه ، والنصارى يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا فى المخلوق من نعوت الربوبية وصفات الإلهية ويجوزون له مالا يصلح إلا للخالق ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسأله الهداية بقوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » ، وفي هذه الأمة من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن » ؟ والحديث في الصحيحين .

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وحده ، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة ، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله (٥٦ الذاريات) : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وقوله (٢١ البقرة) ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ وأمثال هذا . والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته ، وكمال الذل ونهايته ، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً ، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبوداً ، ولهذا قال تعالى (١٦٥ البقرة) : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ فبين سبحانه أن المشركين الذين يتخذون من دون الله أنداداً وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ولأوثانهم ، لأن المؤمنين أعلم بالله ، والحب يتبع العلم ، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده ، وأولئك جعلوا بعض حبهم له وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ، ومعلوم أن ذلك أفضل ، قال الله تعالى (٢٩ الزمر) : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا مسلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ﴾ ؟ الآية . واسم « المحبة » فيه إطلاق وعموم ، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين ، وإن كان ذلك من محبة الله ، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره ، فلهذا جاءت محبة الله مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك ، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى . ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رأس الأمر الإسلام ؛ وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه ، وقد قال تعالى (١٩ التوبة) : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله — إلى قوله — أجر عظيم ﴾ ، والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة ، وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد . والجهاد دليل المحبة الكاملة ، قال تعالى (٢٤ التوبة) : ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ﴾ الآية . وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين (٥٤

المائدة) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ فإن المحبة مستلزمة للجهاد ، ولأن المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض محبوبه ، ويوالى من يوالى محبوبه ويعادى من يعاديه ، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق فى ذلك ، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم ، إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى بكر فى طائفة فيهم صهيب وبلال « لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فقال لهم : يا إخوتى هل أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أبا بكر » وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا : ما أخذت السيوف مأخذها ، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش ؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له ما تقدم ، لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله والمعاداة لأعدائهما ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح فيما يروى عن ربه « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه » فبين أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكرهه ، وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال « وأنا أكره مساءته » وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت فسمى ذلك تردداً ، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك ، وهذا اتحاد فى المحبوب المرضى المأمور به والمبغض المكروه المنهى عنه ، وقد يقال له اتحاد نوعى وصفى ، وليس ذلك اتحاد الذاتين فإن ذلك ممتنع ، والقائل به كافر ، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم ، وهو الاتحاد المقيد فى شيء بعينه . وأما الاتحاد المطلق الذى هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق فهذا تعطيل للصانع وجحود له ، وهو جامع لكل شرك ، فكما أن الاتحاد نوعان فكذلك الحلول نوعان : قوم يقولون بالحلول المقيد فى بعض الأشخاص ، وقوم يقولون بحلوله فى كل شيء وهم الجهمية الذين يقولون إن ذات الله فى كل مكان . وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء فى المحبة أنه يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ويغيب بمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته وبموجوده عن وجوده

حتى لا يشهد إلا محبوبه فيظن – فى زوال تمييزه ، ونقص عقله ، وسكره – أنه هو محبوبه ، كما قيل إن محبوباً وقع فى اليم فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت ، فأنت ما الذى أوقعك ؟ فقال : غبت بك عنى فظننت أنك أنا . فلا ريب أن هذا خطأ وضلال ، لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله كان معذوراً فى زواله ، فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام فى هذه الحال التى زال فيها عقله بغير سبب محظور ، كما قيل فى عقلاء المجانين أنهم قوم آتاهم الله عقولا وأحوالا ، فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم ، وأسقط ما فرض بما سلب . وأما إذا كان السبب الذى به زوال العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً ، وإن كان لا يحكم بكفره فى أصح القوالين ، كما لا يقع طلاقه فى أصح القولين ؛ وإن كان النزاع فيه مشهوراً . وقد بسطنا الكلام فى هذا وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم فى قاعدة ذلك .

وبكل حال فالفناء الذى يفضى بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص وإن كان صاحبه غير مكلف ، ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل الأمة ، ولا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان لهؤلاء فى صعق موسى نوع تعلق . وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم ، وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه ، وولايته وعداوته ، فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى (٤ الصف) : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ . والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل ، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة كما قد أكثر الشعراء فى ذلك ، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود ، وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه فإن الملام على ذلك كثير ، وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق ، وليس من ذلك المحمود الصبر على هذا الملام ، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم فى ذلك ، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام فى ذلك .

فصل

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل دينى فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فإن الراجى الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه ، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . قال تعالى (٥٧ الإسراء) : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون

إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ الآية . وقال (٢١٨ البقرة) : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ ورحمته اسم جامع لكل خير ، وعذابه اسم لكل شر ، ودار الرحمة الخالصة هى الجنة ، ودار العذاب الخالص هى النار ، وأما الدنيا فدار استدارج . فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم ، وأعلاه النظر إلى وجه الله كما فى صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موحداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » وهو « الزيادة » . ومن هنا يتبين زوال الاشتباه فى قول من قال : ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك ، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك . فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل فى مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية أو من يقر بها ويزعم أنه لا تمتع فى نفس رؤية الله كما يقوله طائفة من المتفقهة ، فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات ، ولهذا قال بعض من غلط من المشايخ لما سمع قوله (١٥٢ آل عمران) : ﴿ منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ﴾ قال : فأين من يريد الله؟ وقال آخر (١١١ التوبة) : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ قال : إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه ؟ وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر ، والتحقيق أن الجنة هى الدار الجامعة لكل نعيم ، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله ، وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما أخبرت به النصوص وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار ، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده : إنك لو لم تخلق ناراً ولو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد ، ويجب التقرب إليك والنظر إليك ، كما قال عمر رضى الله عنه « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » ، أى هو لم يعصه ولو لم يخفه ، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته . والراجى الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه فمعلوم أن هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هى أوجبت محبة التجلى والخوف من الاحتجاب وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به فهذا

إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته لله وهى أحلى من كل محبة ، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء كما فى الحديث « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما تلهمون وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته . فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التى هى الأصل ، وهذا كله ينبنى على أصل المحبة فيقال : قد نطق الكتاب والسنة بمحبة العباد المؤمنين لله كما فى قوله (١٦٥ البقرة) : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ، وقوله (٥٤ المائدة) : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ ، وقوله (٢٤ التوبة) : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ﴾ وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » بل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت لمحبة الله كما فى قوله (٢٤ التوبة) : ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله ﴾ وكما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال « والله يا رسول الله لأنت أحب إلىَّ من كل شيء ، إلا من نفسى . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال : والله لأنت أحب إلى من نفسى » وكذلك محبة صحابته وقرابته كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار » وقال « لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر » وقال على رضى الله عنه « إنه لعهد النبى الأمى إلى أنه لا يحبنى إلا مؤمن ، ولا يبغضنى إلا منافق » ، وفى السنن أنه قال للعباس « والذى نفسى بيده ، لا يدخلون الجنة حتى يحبونكم لله ولقرابتى يعنى بنى هاشم . وقد روى حديث عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لأجلى » .

وأما محبة الرب لعبده فقال تعالى (١٢٥ النساء) : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ وقال تعالى (٥٤ المائدة) : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقال (١٩٥ البقرة) ﴿ وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين ﴾ ، (٩ الحجرات) : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ ، (٤ التوبة) : ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ ، (٧ التوبة) : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين ﴾ ، (٤ الصف) ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ، (٧٦ آل عمران) ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ .

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة ، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون . وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذى عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقة ، بل هى أكمل محبة ، فإنها كما قال تعالى (١٦٥ البقرة) : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ، وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده المؤمنون وما هو فى الله محبة حقيقية . وأنكر الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب محبته ، وقاسوا به المحبة . وكان أول من أحدث هذا فى الإسلام الجعد بن درهم فى أوائل المائة الثانية ، فضحى به خالد ابن عبد الله القسرى أمير العراق والمشرق بواسط ، خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس : ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما . ثم نزل فذبحه ، فكأنه (١) قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان فأظهره عليه وإليه أضيف قول الجهمية ، فقتله سلم ابن أحوز أمير خراسان بها ، ثم نقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وأظهر قولهم فى زمن الخليفة المأمون ، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم عن ذلك . وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفات ثبوتية أصلا ، وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرهما ، وهم ينكرون فى الحقيقة أن يكون إبراهيم خليلا وموسى كليما وأن الخلة هى كمال المحبة المستغرقة للحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليـــلا

ويشهد لهذا ما ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » يعنى نفسه . وفى رواية « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » وفى رواية « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » فبين صلى الله عليه وسلم أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا وأنه لو يكون ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، مع

(١) أى الجعد بن درهم .

أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كما قال لمعاذ « والله إنى لأحبك » وكذلك قوله للأنصار ، وكان زيد بن حارثة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك ابنه أسامة حبه وأمثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص « أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة . قال : فمن الرجال ؟ قال : أبوها » . وقال لفاطمة رضى الله عنها « ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى . قال : فأحبى عائشة » . وقال للحسن « اللهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه » . وأمثال هذا كثير ، فوصف نفسه بمحبة الأشخاص ، وقال « إنى أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هى من كمالها ، وتخللها الحب حتى يكون المحبوب بها محبوباً لذاته لا لشىء آخر ، إذ المحبوب لشىء غيره هو مؤخر فى المحبة عن ذلك الغير ومن كمالها لا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها الحب ، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب . وإن الخلة أيضاً تنافى المزاحمة وتقدم الغير بحيث يكون المحبوب محبوباً لذاته لا يزاحمه فيها غيره ، وهذه محبة لا تصلح إلا لله فلا يجوز أن يشركه غيره فيما يستحقه ، وهو محبوب لذاته وكل ما يحب غيره إذا كان محبوباً بحق فإنما يحب لأجله ، وكل ما أحب لغيره فمحبته باطلة فى الدنيا ، (والدنيا) ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى .

فإذا كانت الخلة كذلك فمن المعلوم أن من أنكر أن يكون الله محبوباً لذاته ينكر مخالته . وكذلك أيضاً إن أنكر محبته لأحد من عباده فقد أنكر أن يتخذه خليلا بحيث يحب الرب ويحبه العبد على أكمل ما يصلح للعبادة . وكذلك تكليمه لموسى أنكروه لإنكارهم أن يقوم به صفة من الصفات أو فعل من الأفعال ، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم ، أو أن يستوى أو أن يجىء ، فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم ، فهذا حقيقة قولهم (١١٨ البقرة) : ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ﴾ . لكن لما كان الإسلام ظاهراً والقرآن متلواً لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام أخذوا يلحدون فى أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته والتقرب إليه ، وهذا جهل عظيم ، فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليه ، فمن لا يحب الشىء لا يمكن أن يحب التقرب إليه ، إذ التقرب وسيلة ، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود ، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشىء المحبوب هى المحبوب دون الشىء المقصود بالوسيلة . وكذلك العبادة والطاعة إذا قيل فى المطاع المعبود إن هذا يحب طاعته وعبادته فإن محبة ذلك تبع لمحبته ، وإلا فمن لا يحبه لا يحب طاعته وعبادته ، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه

يكون معارضاً له أو مفتدياً منه ، لا يكون محباً له ، ولا يقال إن هذا يحبه ، ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته ، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة فإن ذلك يقتضى أن يعبر بلفظين : محبة العوض ، والسلامة عن محبة العمل ، أما محبة الله فلا تعلق لها بمجرد محبة العوض ، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض لا يقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك ، بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال ، بل من يبغضه . وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال إنه يحبه بل يكون مبغضاً له . فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه يمتنع أن يكون معناه مجرد محبة العمل الذى ينالون به بعض الأغراض المحبوبة من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلا . وأيضاً فلفظ العبادة متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم ، ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات : أحدها العلاقة ، فهو تعلق القلب بالمحبوب . ثم الصبابه ، وهو انصباب القلب إليه . ثم الغرام ، وهو الحب اللازم . ثم العشق . وآخر المراتب هو التتيم وهو التعبد للمحبوب ، والمتيم المعبود وتيم الله عبد الله ، فإن المحب يبقى ذاكراً معبداً مذللا لمحبوبه . وأيضاً فاسم الإنابة إليه يقتضى المحبة أيضاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء كما تقدم . وأيضاً فلو كان الذى قالوه حقاً من كون ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والإضمار فالمجاز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد . ومعلوم أن ليس فى كتاب الله وسنة رسوله ما ينفى أن يكون الله محبوباً وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال لا فى الدلالة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا العقل أيضاً ، فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه فيجب أن يصح إطلاق القول بأن الله لا يحب ولا يحب كما أطلق إمامهم الجعد بن درهم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين ، فعلم دلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً بل هى حقيقة وأيضاً فقد فرق بين محبته . ومحبة العمل له فى قوله (٢٤ التوبة) : ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله﴾ كما فرق بين محبته ومحبة رسوله فى قوله ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ ، فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً و من باب عطف الخاص على العام وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذى لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد . وكما أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له . وأيضاً فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف فى اللغة لا حقيقة ولا مجازاً ، فحمل الكلام عليه تحريف محض . وقد قررنا فى مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوباً مراداً لذاته ، كما لا يجوز أن يكون غير الله

موجوداً بذاته ، بل لا رب الا الله ولا إله غيره . والإله هو المعبود الذى يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته كمال المحبة والتعظيم . وكل مولود يولد على الفطرة ، فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس فى محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا الله وحده ، وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور وملموس يجد من نفسه وإن قلبه يطلب شيئاً سواه ويحب أمراً غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس ، ولهذا قال الله تعالى فى كتابه (٢٨ الرعد) : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ فى الصحيح عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه وسلم عن الله قال « إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين ، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً » كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل مولود يولد على الفطرة » فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » . ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (٣٠ الروم) : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ﴾ . وأيضاً فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال ، وكل ما فى غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى، فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال ، وإنكار محبة العبد لربه هو فى الحقيقة إنكاراً لكونه إلهاً معبوداً ، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته ، وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً ، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ولكونه إله العالمين ، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود . ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى ، أن أعظم الوصايا : أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك ، وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التى هى أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن ، وإنكار ذلك هو مأخوذ من مقال الصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف أو متكلم أو متفقه أخذه عن هؤلاء ، وظهر ذلك فى القرامطة الباطنية من الإسماعيلية ، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء (٧٥ الشعراء) : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ وقال أيضاً (٧٦ الأنعام) : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ ، وقال تعالى (٨٨ الشعراء) : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وهو السليم من الشرك ، وأما قولهم إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه ، فهذا الكلام مجمل ، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بوالد فهذا حق ، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة

ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول ونحو ذلك فهذا أيضاً حق ، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة والاحتجاج به مصادرة على المطلوب ويكفى فى ذلك المنع . ثم يقال : بل لا مناسبة تقتضى المحبة الكاملة إلا المناسبة التى بين المخلوق والخالق الذى لا إله غيره الذى هو فى السماء إله وفى الأرض إله وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض . وحقيقة قول هؤلاء أنهم جحدوا كون الله معبوداً فى الحقيقة ، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محباً فى الحقيقة فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً ، لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة ، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم فى المحبة ، وإن كانوا قد يخلطون فيه ، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية . فأما محبة الرب عبده فهم لها أشد إنكاراً » ومنكروها قسمان : قسم يتأولونها بنفس المفعولات التى يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه . وقسم يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات . وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى « قواعد الصفات والقدر» وليس هذا هو موضعها . ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب ، وإن لم يكن ذلك موجوداً ، وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر ، وقد قال الله تعالى (٢٠٥ البقرة) : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ وقال تعالى (٧ الزمر) : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ .

والمقصود هنا إنما هو فى ذكر محبة العباد لله ، وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان ، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع فى ذلك ، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيمانى والسماع الفرقانى . قال تعالى (٥٢ الشورى) : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ إلى آخر السورة . ثم أنه لما طال الأمد صار فى طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة ، وصار فى بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع الحديث كالتغيير (١) وسماع المكاء والتصدية ، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه تحريك جنس الحب الذى يحرك من كل قلب ما فيه من الحب ، بحيث يصلح لمحب الأوتار والصلبان والأخوان والأوطان والمردان والنسوان ، كما يصلح لمحب الرحمن ،

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس » أن المغيرة قوم يغيرون ذكر الله بدعاء وتضرع ، وقد وسموا ما يطربون فيه من الشعر فى ذكر الله عز وجل تغييراً . وقال : كان الشافعى يكره التغيير اهـ

ولكن كان الذين يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان ؛ وربما اشترطوا له الشيخ الذى يحرس من الشيطان ، ثم توسع فى ذلك غيرهم حتى خرجوا فى ذلك إلى أنواع من المعاصى بل إلى نوع من الفسوق ، بل خرج فيه طوائف الى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التى فيها الكفر والإلحاد ، مما هو من أعظم أنواع الفساد ، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها ، والذى عليه محققو المشايخ أنه . كما قال الجنيد رحمه الله : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه استراح به ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث ، ولا يؤمر به ، ولا يتخذ ديناً وقربة ، وأن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله فإنه لا دين إلا ما شرعه الله . قال الله تعالى (٢١ الشورى) : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ولهذا قال (٣١ آل عمران) : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ، فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله ، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم ،قال أبىّ بن كعب رضى الله عنه : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة ، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من مخافة الله إلا لم تمسه النار أبداً ، وإن اقتصادا فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة ، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع ، فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود المحبوب لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه . ومن المعلوم أنه لم يكن فى القرون الثلاثة المفضلة التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم « خير القرون قرنى الذى بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » لا فى الحجاز ، ولا فى الشام ، ولا فى اليمن ، ولا فى العراق ، ولا فى مصر ، ولا فى خراسان ، أحد من أهل الخير والدين يجتمع على السماع المبدع لصلاح القلوب ، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره ، وعده الشافعى من إحداث الزنادقة حين قال : خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير [1] يصدون به الناس عن القرآن . وأما مالا يقصده الإنسان من الاستماع فلا يترتب عليه نهى ولا ذم باتفاق الأئمة ، ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع ، فالمستمع للقرآن يثاب عليه ، والسامع له من غير قصد لا يثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات . وكذلك

(١) تقدم تفسير التغبير فى ص ٧١ عن ابن الجوزى .

ما ينهى عن استماعه من الملاهى لو سمعه السامع بدون قصد لم يضره ذلك ، فلو استمع السامع بيتا يناسب بعض حاله تحرك ساكنه المحمود وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن ذلك مما ينهى عنه ، وإن كان المحمود الحسن حركة قلبه التى يحبها الله ورسوله أو التى تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه ، كالذى اجتاز ببيت فسمع قائلا يقول :

كل يـــوم تتلـــــون غير هذا بك أجمـــل

فأخذ منه إشارة تناسب حاله فإن الإشارة من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال . ومسألة السماع كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع ، والمقصود ههنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الإيمانى القرآنى النبوى الدينى الشرعى الذى هو سماع النبيين وسماع العالمين وسماع العارفين وسماع المؤمنين ، قال الله تعالى (٥٨ مريم) : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم — إلى قوله — إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ وقال تعالى (١٠٧ الإسراء) : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً — إلى قوله — ويزيدهم خشوعا ﴾ وقال تعالى (٨٣ المائدة) : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ وقال تعالى (٢ الأنفال) : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ الآية . وقال تعالى (٢٣ الزمر) : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ الآية ، وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه فى مثل قوله (٦ لقمان) : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً — إلى قوله — وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها ﴾ الآية ، وقال تعالى (٧٣ الفرقان) : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً ﴾ ، وقال تعالى (٢٣ الأنفال) : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ الآية ، وقال تعالى (٢٦ فصلت) : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ وقال تعالى (٤٩ المدثر) : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ ومثل هذا كثير فى القرآن . وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخى ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشى وأمثال هؤلاء . وكان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى الأشعرى : يا أبا موسى

ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون . وكان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقى يستمعون ، وقد ثبت فى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بأبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال : لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود » ، وقال « مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك ، فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً » أى لحسنته لك تحسيناً وقال « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال « الله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » أذنا أى استماعاً كقوله (٢ الانشقاق) : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أى استمعت . وقال صلى الله عليه وسلم « ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يسعه خطاب ولا يحويه كتاب ، كما أن فى تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان . ومما ينبغى التفطن له أن الله سبحانه قال فى كتابه (٣١ آل عمران) : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ قال طائفة من السلف : ادعى قوم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ الآية ، فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول ، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد ، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله فإن هذا الباب يكثر فيه الدعاوى والاشتباه ، ولهذا يروى عن ذى النون المصرى أنهم تكلموا فى مسألة المحبة عنده فقال : اسكتوا عن هذه المحبة لا تسمعها النفوس فتدعيها . وقال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتسع فى أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله ، حتى قالت اليهود والنصارى (١٨ المائدة) : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ . ويوجد فى مدعى المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد فى أهل الخشية ، ولهذا قرن الخشية بها فى قوله (٣٢ ق) : ﴿ هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ .

وكان المشايخ المصنفون فى السنة يذكرون فى عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة ، والخوض فيها من غير خشية ، لما فى ذلك من الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفة .

وما وقع فى هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية ، حتى صار المنحرفون صنفين : صنف يقر بحقها وباطلها ، وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه . والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفى غيرها من موافقة الكتاب والسنة ، والإنكار لما فيها وفى غيرها من مخالفة الكتاب والسنة .

وقال تعالى (٣١ آل عمران) : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ . فاتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع شريعته باطناً وظاهراً هى موجب محبة الله ، كما أن الجهاد فى سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها كما فى الحديث « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » وفى الحديث « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل المحبة » وكثير ممن يدعى المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف وعن النهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، ويدعى مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله ، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة ، ولهذا فى الحديث المأثور « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » . فقوله أين المتحابون بجلال الله تنبيه على ما فى قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه والتحاب فيه ، وبذلك يكونون حافظين لحدوده دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان فى قلوبهم ، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث « حقت محبتى للمتحابين فى ، وحقت محبتى للمتجالسين فى ، وحقت محبتى للمتزاورين فى ، وحقت محبتى للمتباذلين فى » ، والأحاديث فى المتحابين لله كثيرة ، وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى هريرة « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجلان تحابا فى الله واجتمعا وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات نسب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين .

وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، ولها أصلان : أحدهما وهو الذى يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده ، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد ، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، والله سبحانه هو

المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة . فإنه المتفضل بجميع النعم وإن جرت بواسطة ، إذ هو ميسر الوسائط وسبب الأسباب ، لكن هذه المحبة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه فما أحب العبد فى الحقيقة إلا نفسه ، وهذا ليس بمذموم بل محمود . وهذه المحبة هى المشار إليها بقوله « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهلى بحبى » والمقتصر على هذه هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا للإحسان إليه ، وهذا كما قالوا : إن الحمد لله على نوعين : حمد هو شكر وذلك لا يكون إلا على نعمته ، وحمد هو ثناء عليه ومحبة له ، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه . فكذلك الحب ، فإن الأصل الثانى هو محبته لما هو أهل ، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله ، وما من وجه من الوجوه التى يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه ، حتى جميع مفعولاته ، إذ كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال ، ويستحق أن يحمد على السراء والضراء ، وهذا أعلى وأكمل ، وهذا حب الخاصة ، وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك ، لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم مالا يطيقون ، وهم السابقون كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال « مر النبى صلى الله عليه وسلم بجبل يقال له جمدان فقال : سيروا ، هذا جمدان . سبق المفردون . قالوا : يا رسول الله من المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ، وفى رواية أخرى قال « المستهترون بذكر الله (١) يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً » ، وفى حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « قال موسى : يا رب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال : أى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يطلب علم الناس إلى علمه ، ليجد علمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى . قال : أى عبادك أحكم ؟ قال : الذى يحكم على نفسه كما يحكم على غيره ، ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه » فذكر فى هذا الحديث الحب والعلم والعدل ، وذلك جماع الخير .

ومما ينبغى التفطن له أنه لا يجوز أن يظن فى باب محبة الله تعالى ما يظن فى محبة غيره مما هو من جنس التجنى والهجر والقطيعة لغير سبب ، ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس ، حتى يتمثلون فى حبه بجنس ما يتمثلون به فى حب من يصد

(١) أى الذين أولعوا به ، لا يتحدثون بغيره .

ويقطع بغير ذنب أو يبعد من يتقرب إليه ، وإن غلط فى ذلك من غلط من المصنفين فى رسائلهم حتى يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على الله ، بل لله الحجة البالغة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله تعالى : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ بخير منه ، ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » وفى بعض الآثار « يقول الله تعالى : أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى : إن تابوا فأنا حبيبهم ، لأن الله يحب التوابين . وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ؛ أبتليهم بالمصائب حتى أطهرهم من المعايب » ، وقال تعالى (١١٢ طه) : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾ قيل : الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره ، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه ، وقال تعالى (١١٨ النحل) : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ، وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضى الله عنه قال « يقول الله تعالى : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم . يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم . يا عبادى ، إنكم تذنبون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب ولا أبالى ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى ، إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر . يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ، وما رواه البخارى عن شداد بن أوس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات فى يومه

دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة » فالعبد دائماً بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر ، وذنب منه يحتاج فيه إلى استغفار ، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً ، فإنه لا يزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار . ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر فى جميع الأحوال . وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى « أيها الناس ، توبوا إلى ربكم ، فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة » وقال عبد الله بن عمر «كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : رب اغفرلى وتب على إنك أنت التواب الرحيم ، مائة مرة » وقال « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم اثنتين وسبعين مرة » وفى صحيح مسلم أنه قال « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال ، قال تعالى (١٧ آل عمران) : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ قال بعضهم : أحيوا الليل بالصلاة ، فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار . وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام » ، وقال تعالى (١٩٨ البقرة) : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام — إلى قوله — واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ ، وقد أمر الله نبيه بعد أن بلغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده وأتى بما أمر الله به مما لم يصل إليه غيره فقال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ﴾ ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار ، كما قال الله تعالى (أول هود) ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ الآية . وقال تعالى (٦ فصلت) : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه ﴾ وقال تعالى (١٩ محمد) : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ولهذا جاء فى الحديث « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار » وقال يونس (٨٧ الأنبياء) : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ و « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول : لا إله إلا أنت ، ظلمت نفسى ، فاغفر لى » . وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس والوضوء « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » والله أعلم . وصلى الله على محمد وسلم .

فهرس

(التحفة العراقية فى الأعمال القلبية)

صفحة

أعمال القلوب (أى محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له ، والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له) هى من أصول الإيمان وقواعد الدين ٣٧

المسلمون فى أعمال القلوب على ثلاث درجات : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ٣٧

البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ٣٨

من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ٣٩

من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ٣٩

الصدق والتصديق يكونان فى الأقوال وفى الأعمال ٣٩

الإخلاص هو حقيقة الإسلام ، والإسلام هو الاستسلام لله ٤١

الحلال بين ، والحرام بين ... فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه . وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله .. وهى القلب ٤٢

الحزن لم يأمر الله به ولا رسوله ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون ﴾ ٤٢

حق الله على العباد ، وحق العباد على الله ٤٤

العبادة لا تصلح إلا لله . فرح الله بتوبة عبده ٤٤

الزهد المشروع ترك الرغبة فيما لا ينفع فى الدار الآخرة ، والورع المشروع ترك ما قد يضر فى الدار الآخرة ٤٤

يقدر الله الأمور ويقضيها بالأسباب التى جعلها معلقة بها ، كما فى الحديث « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » ٤٥

تقسيم الكلمات ، والأمر ، والإرادة ، والإذن ، والكتاب ، والحكم ، والقضاء والتحريم — إلى كونى وشرعى ٤٦

العواقب التى خلق الله الناس لها سعادة وشقاوة ييسرون لها بأعمالهم الطيبة أو الخبيثة ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ٢١ الجاثية . ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ٢٨ سورة ص . ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ٩ الزمر ٤٨

المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ٥٠

قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع . وإنما التوكل المأمور به ما يجمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع ٥٢

صفحة

أهمية الصبر فى الإسلام ، وقد ذكر فى القرآن فى أكثر من تسعين موضعاً ٥٤
الرضا بالقضاء وأنه من أعمال المقربين والمقتصدين . وقد فسر الحمد بالرضا ٥٥
من سعادة ابن آدم استخارته لله ، ورضاه بما قسم له ٥٧
من الناس من يكون فيه صبر بقسوة ، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع ، ومنهم من يكون فيه القسوة
والجزع ، والمؤمن المحمود الذى يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس ٥٨
محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أحواله ، بل هى أصل كل عمل من أعمال الإسلام ٥٩
محبة الله تقتضى طاعته فى كل ما أمر به ونهى عنه ، وذلك هو أصل الدين ، وكماله بكمالها ، ونقصه بنقصها ٦٣
فى الحديث القدسى الصحيح « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى
يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى
يبصر وبى يبطش ، وبى يمشى . ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاننى لأعينه » ٦٤
الاتحاد المطلق الذى هو قول أهل « وحدة الوجود » هو تعطيل للصانع وجحود له وهو جامع لكل شرك
إذا كانت المحبة أصل كل عمل دينى ، فالخوف والرجاء يستلزم المحبة ويرجع إليها... ... ... ٦٦
الدنيا دار استدراج ، والنار دار العذاب الخالص ، والجنة دار الرحمة الخالصة ، وأعلى نعيم الجنة
النظر إلى وجه الله ٦٦
قول أبىّ بن كعب : إن اقتصاداً فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة ، فاحرصوا أن
تكون أعمالكم — اقتصاداً واجتهاداً — على منهاج الأنبياء وسنتهم ٧٣
السماع الشرعى هو سماع الصحابة والتابعين لكتاب الله بخشوع وتدبر وبصيرة ، والسماع البدعى ما أحدث
بعد ذلك مما سمى (التغبير) ٧٥
من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ومن عبده بالرجاء وحده
فهو مرجىء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ٧٥
الفساد الذى وقع فيه طوائف من المتصوفة ، وما وقع فى هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال ٧٦
أصل المحبة معرفة الله ، وهى قسمان : محبة العامة لأجل إحسانه ومحبة الخاصة وهى محبته لما هو له أهل ،
وهى محبة الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم ، ويتلذذون بذكره ومناجاته ٧٧
فى الحديث القدسى « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ،
ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً » ٧٨
فى حديث آخر « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا . يا عبادى كلكم
ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم . يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم » ... ٧٨
كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك
السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام ٧٩